غرام الكبار

obeikan.com

obeikan.com

هو : سوبر ستار الشعر العربي من الطراز الفريد جداً إذ بلغ نتاجه الشعري ما يتجاوز ثلاثة وعشرين ألف بيت وخمسمائة بيت ولعل هذا الرقم لم يبلغه شاعر عربي قديم أو حديث في تاريخ الإنسانية جمعاء .

وهو سياسي فلتة من العيار الثقيل .. وعضو في مجلس الشيوخ .. رفيق الخديوي توفيق وصديق الخديوي عباس حلمي ونفاه السلطان حسين إلى عالَم المجهول والمعاناة !! وحين عاد أصبح صانع قرار سيادي في غرفة عمليات الملك فؤاد .

وهو أيضاً صانع أمجاد أم كلثوم وعبد الوهاب والسنباطي .

هو قيثارة الشعر وأرجوزة القصيدة وفاكهة الكلمة وأغنية الشعور .. هو متنبي عصره وشاعر الأجيال وجبرتي تاريخ الشعر وأمير القوافي .

ولِدَ في القصر والتصق بالشعب والتحم بالشارع المصري والعربي .. قالوا : أنه صديق الملوك والأمراء وشاعر الصفوة فاستحق وبجدارة لقب : « أمير الشعراء » .. فكيف كانت رحلة حياته الغرَّاء ؟! حين تتناغم ملاحم السياسة وبلاغة الشعور وفصاحة الكلمة مع فطاحل الساسة و جهابزة اللُغة ورموز الوطنية في مرحلة من أغزر وأعنف وأعظم مراحل النضال الوطني والثراء الفِكري والفتوة السياسية .. حيث يتلاقى وفي عصرٍ واحد رجال السياسة أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول والسلطان حسين ومصطفى النحاس مع جهابزة الفِكر في عصر النهضة والتنوير أمثال : أحمد شوقي أمير الشعراء ولطفي السيد أستاذ الجيل وجبل الفِكر العربي عباس العقاد وعميد الأدب العربي طه حسين والعبقري مصطفى صادق الرافعي والفيلسوف جبران خليل جبران وحافظ إبراهيم شاعر النيل وفنان الشعب سيد درويش وشاعر الألم والغُربة بيرم التونسي وشاعر الشباب أحمد رامي وموسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب وست الكُل أم كلثوم وقيثارة الصحافة وأم

الجراة الصحفية السيدة فاطمة اليوسف وراندة النهضة النسائية الأولى نبوية موسى وحاملة لواء الحرية هدى شعراوي وأجمل قلب وأروع صالون مي زيادة .. كيف يلتقي كل هؤلاء وغيرهم من الجهابزة حول مائدة واحدة .. وفي عصر واحد ؟!

فكيف كانت رحلة حياة أمير الشعراء أحمد شوقي عنوان تلك المرحلة والمانشيت الرئيسي لأزهى وأروع حقبة سياسية وفكرية وفنية وشعرية في تارخ مصر والعالم العربي ؟!

***

كان الشعر العربي على موعد مع القدر ينتظر من يأخذ بيده ويبعث فيه روحًا جديدة تبث فيه الحركة والحياة وتعيد له الدماء في الأوصال فتتورد وجنتاه نضرة وجمالاً بعد أن ظل قرونًا عديدة واهن البدن خامل الحركة كليل البصر .

وشاء الله أن يكون « البارودي » هو الذي يعيد الروح إلى الشعر العربي ويلبسه أثوابًا قشيبة زاهية اللون بديعة الشكل والصورة ويوصله بماضيه التليد بفضل موهبته الفذة وثقافته الواسعة وتجاربه الغنية .

ولم يشأ الله تعالى أن يكون البارودي هو وحده فارس الحلبة ونجم عصره- وإن كان له فضل السبق والريادة- فلقيت روحه الشعرية الوثابة نفوسًا تعلقت بها فملأت الدنيا شعرًا بكوكبة من الشعراء من أمثال : إسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف وعبد الحليم المصري. وكان أحمد شوقي هو نجم هذه الكوكبة وأميرها بلا منازع عن رضى واختيار فقد ملأ الدنيا بشعره وشغل الناس وأشجى القلوب.

من هنا تبدأ رحلة تميز الأمير شوقي وتفرده .

كانت لحظة ميلاد أحمد شوقي بحي الحنفي بالقاهرة في (٢٠ من رجب ١٢٨٧

هـ - ١٦ من أكتوبر ١٨٧٠م) لأب شركسي وأم من أصول يونانية وكانت جدته لأمه تعمل وصيفة في قصر الخديوي إسماعيل وعلى جانب من الغنى والثراء فتكفلت بتربية حفيدها ونشأ معها في القصر ولما بلغ الرابعة من عمره التحق بكُتّاب الشيخ صالح فحفظ قدرًا من القرآن وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة ثم التحق بمدرسة المبتديان الابتدائية وأظهر فيها نبوغًا واضحًا كوفئ عليه بإعفائه من مصروفات المدرسة وانكب على دواوين فحول الشعراء حفظًا واستظهارًا فبدأ الشعر يجري على لسانه .

قد تسأل عن صفات شوقي ؟

فأجيبك:

« كان شوقي أميل إلى القصر منه إلى الطول وكان ممتلئًا مستدير الرأس مرتفع الجبهة كث الحاجبين وسيم الطلعة في عينه اختلاج وتألق وكان وديعًا رقيقًا هادئًا عف اللسان يبتعد بنفسه عن الخصومات وكان شديد الحياء لا يتكلم إلا بصوت خفيض بل لقد كان يغلب عليه الصمت حتى يخيل إلى جلسائه كأنه ليس معهم أو كأنه يتحدث إلى عالم الأشباح أو يتحدث إلى نفسه» .

ومن طفولته الفتية : دخلت جدته يوما بحفيدها - وكان فى الثالثة من عمره - على الخديو اسماعيل وكان شوقى مصابا فى أعصاب عينيه بحيث ينظر دائما إلى أعلى و لا يخفض من بصره .. فما أن رآه اسماعيل و علم بذلك أمر فأحضر له كيس من الذهب فنثره على الأرض فتحول شوقى إليه و أخذ بجمعه و يلعب به . فقال اسماعيل لجدته اصنعى معه ذلك حتى يتعود النظر إلى الأرض فأجابت :« هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى » . فقال: «جيئى به إلىّ متى شئت حتى أنثر الذهب تحت عينيه فإنى آخر من ينثر الذهب فى مصر».

بعد أن أنهى تعليمه بالمدرسة وهو في الخامسة عشرة من عمره التحق بمدرسة الحقوق سنة (١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م) وانتسب إلى قسم الترجمة الذي قد أنشئ بها حديثًا كيف بدأت موهبته الشعرية تلفت نظر أستاذه الشيخ «محمد البسيوني» ورأى فيه مشروع شاعر كبير فشجّعه وكان الشيخ بسيوني يُدّرس البلاغة في مدرسة الحقوق ويُنظِّم الشعر في مدح الخديوي توفيق في المناسبات وبلغ من إعجابه بموهبة تلميذه أنه كان يعرض عليه قصائده قبل أن ينشرها في جريدة الوقائع المصرية وأنه أثنى عليه في حضرة الخديوي وأفهمه أنه جدير بالرعاية وهو ما جعل الخديوي يدعوه لمقابلته . لتبدأ فصولاً جديدة في قصة حياة شوقي مع الصعود والصمود والنجاح والتحدي .

بعد عامين من الدراسة تخرّج من المدرسة والتحق بقصر الخديوي توفيق الذي ما لبث أن أرسله على نفقته الخاصة إلى فرنسا فالتحق بجامعة «مونبلييه» لمدة عامين لدراسة القانون ثم انتقل إلى جامعة باريس لاستكمال دراسته حتى حصل على إجازة الحقوق سنة (١٣١١هـ = ١٨٩٣م) ثم مكث أربعة أشهر قبل أن يغادر فرنسا في دراسة الأدب الفرنسي دراسة جيدة ومطالعة إنتاج كبار الكتاب والشعر .

ثم عاد شوقي إلى مصر فوجد الخديوي عباس حلمي يجلس على عرش مصر فعيّنه بقسم الترجمة في القصر ثم ما لم لبث أن توثّقت علاقته بالخديوي الذي رأى في شعره عونًا له في صراعه مع الإنجليز فقرّبه إليه بعد أن ارتفعت منزلته عنده وخصّه الشاعر العظيم بمدائحه في غدوه ورواحه وظل شوقي يعمل في القصر حتى خلع الإنجليز عباس الثاني عن عرش مصر وأعلنوا الحماية عليها سنة (١٩٤١م) وولّوا حسين كامل سلطنة مصر وهنا تشتاط إنجلترا غضباً من شاعر الملاحم النضالية ومقاومة الإحتلال أحمد شوقي فيأمروا السلطان حسين

بحسم القضية وبالفعل طلبوا من الشاعر مغادرة البلاد فاختار النفي إلى برشلونة في إسبانيا وأقام مع أسرته في دار جميلة تطل على البحر المتوسط .

وعاش شوقي حياة الغُربة ومناطق المعاناة والحنين إلى الوطن في شِعره ومحطاته الدرامية ومناطق حياته المأساوية في برشلونة .. حيث عاش فترة في إسبانيا في منفاه حيث تعلم لغتها وأنفق وقته في قراءة كتب التاريخ خاصة تاريخ الأندلس وعكف على قراءة عيون الأدب العربي قراءة متأنية وزار آثار المسلمين وحضارتهم في إشبيلية وقرطبة وغرناطة .

وأثمرت هذه القراءات أن نظم شوقي أرجوزته «دول العرب وعظماء الإسلام» وهي تضم ١٤٠٠ بيت موزعة على (٢٤) قصيدة تحكي تاريخ المسلمين منذ عهد النبوة والخلافة الراشدة على أنها رغم ضخامتها أقرب إلى الشعر التعليمي وقد نُشرت بعد وفاته .

وفي المنفى اشتد به الحنين إلى الوطن وطال به الاشتياق وملك عليه جوارحه وأنفاسه. ولم يجد من سلوى سوى شعره يبثه لواعج نفسه وخطرات قلبه وظفر الشعر العربي بقصائد تعد من روائع الشعر صدقًا في العاطفة وجمالاً في التصوير لعل أشهرها قصيدته التي بعنوان «الرحلة إلى الأندلس» وهي معارضة لقصيدة البحتري التي يصف فيها إيوان كسرى ومطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبسِ

وقد بلغت قصيدة شوقي (١١٠) بيتًا تحدّث فيها عن مصر ومعالمها وبثَّ حنينه وشوقه إلى رؤيتها كما تناول الأندلس وآثارها الخالدة وزوال دول المسلمين بها ومن أبيات القصيدة التي تعبر عن ذروة حنينه إلى مصر قوله :

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنسِ

وطنـي لـو شُـغلت بالخلـد عنـه نـازعتني إليـه في الخلـد نـفسي
شـهد الله لم يغـب عـن جفـوني شخصـه سـاعة ولم يخـل حسي

وكتب شوقي في غربته القسرية قصيدة دلت في روعة معانيها على حنينه لوطنه الحبيب فقال:

يـا سـاكني مصر إنـا لا نـزال عـلى عهـد الوفـاء وإن غبنـا مقيمينـا
هـلا بعثـتم لنـا مـن مـاء نهـركم شـيئاً نبـلّ بـه أحشـاء صـادينا
كـل المناهـل بعـد النيـل آسـنة مـا أبعـد النيـل إلا عـن أمانينـا

ودار شعر شوقي في هذه الفترة التي سبقت نفيه حول المديح حيث غمر الخديوي عباس حلمي بمدائحه والدفاع عنه وهجاء أعدائه ولم يترك مناسبة إلا قدَّم فيها مدحه وتهنئته له منذ أن جلس على عرش مصر حتى خُلع من الحكم ويمتلئ الديوان بقصائد كثيرة من هذا الغرض.

ووقف شوقي مع الخديوي عباس حلمي في صراعه مع الإنجليز ومع من يوالونهم لا نقمة على المحتلين فحسب بل رعاية ودفاعًا عن ولي نعمته كذلك فهاجم رياض باشا رئيس النُظّار حين ألقى خطابًا أثنى فيه على الإنجليز وأشاد بفضلهم على مصر وقد هجاه شوقي بقصيدة عنيفة جاء فيها:

غمـرت القـوم إطـراءً وحمـدًا وهـم غمـروك بـالنعم الجسـام
خطبـت فكنـت خطبًـا لا خطيبًـا أضـيف إلى مصـائبنا العظـام
لهجـت بـالاحتلال ومـا أتـاه وجرحـك منـه لـو أحسـت دام

ورغم وطنية شوقي التي لا مرية فيها وعشقه لوطنه إلا أنه انحاز لصداقته للخديوي والسلطان أكثر من القضايا أحياناً .

وقد بلغ من تشيعه للقصر وارتباطه بالخديوي أنه ذمَّ أحمد عرابي وهجاه بقصيدة موجعة ولم يرث صديقه مصطفى كامل إلا بعد فترة وكانت قد انقطعت علاقته بالخديوي بعد أن رفع الأخير يده عن مساندة الحركة الوطنية بعد سياسة الوفاق بين الإنجليز والقصر الملكي ولذلك تأخر رثاء شوقي بعد أن استوثق من عدم إغضاب الخديوي إلا أن نزعة وطنية شوقي كانت أقوى من إيمانه بصداقة الخديوي وغرامه بالوطنية المصرية كان أعظم من ولاءه للقصر فجاء رثاؤه لمصطفى كامل شديد اللوعة صادق الأحزان قوي الرنين بديع السبك والنظم وإن خلت قصيدته من الحديث عن زعامة مصطفى كامل وجهاده ضد المستعمر ومطلع القصيدة :

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والدان

يا خادم الإسلام أجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان

لمّا نُعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... في الزائرين وروّع الحرمان

ومن أبيات هذه القصيدة :

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق و ثوانى

وارتبط شوقي بدولة الخلافة العثمانية ارتباطًا وثيقًا وكانت مصر تابعة لها فأكثر من مدح سلطانها عبد الحميد الثاني داعيًا المسلمين إلى الالتفات حولها لأنها الرابطة التي تربطهم وتشد من أزرهم فيقول :

أما الخلافة فهي حائط بيتكم ... حتى يبين الحشر عن أهواله

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم ... فمصيبة الإسلام من جُهّاله

ولما انتصرت الدولة العثمانية في حربها مع اليونان سنة (١٣١٥هـ = ١٩٨٧م) كتب مطولة عظيمة بعنوان «صدى الحرب» أشاد فيها بانتصارات السلطان العثماني واستهلها بقوله:

بسيفك يعلو والحق أغلب ويـنصر ديـن الله أيـان تضرب

وهي مطولة تشبه الملاحم وقد قسمها إلى أجزاء كأنها الأناشيد في ملحمة فجزء تحت عنوان «أبوة أمير المؤمنين» وآخر عن «الجلوس الأسعد» وثالث بعنوان «حلم عظيم وبطش أعظم». ويبكي سقوط عبد الحميد الثاني في انقلاب قام به جماعة الاتحاد والترقي فينظم رائعة من روائعه العثمانية التي بعنوان «الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد» وقد استهلها بقوله :

سل يلدزا ذات القصور هل جاءها نبأ البدور

لو تستطيع إجابة لبكتك بالدمع الغزير

ولم تكن صلة شوقي بالترك صلة رحم ولا مالأة لأميره فحسب وإنما كانت صلة في الله فقد كان السلطان العثماني خليفة المسلمين ووجوده يكفل وحدة البلاد الإسلامية ويلم شتاتها ولم يكن هذا إيمان شوقي وحده بل كان إيمان كثير من الزعماء المصريين .

وفي هذه الفترة نظم إسلامياته الرائعة وتعد قصائده في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أبدع شعره قوة في النظم وصدقًا في العاطفة وجمالاً في التصوير وتجديدًا في الموضوع ومن أشهر قصائده «نهج البردة» التي عارض فيها البوصيري في بردته وحسبك أن يعجب بها شيخ الجامع الأزهر آنذاك محدث العصر الشيخ «سليم البشري» فينهض لشرحها وبيانها. يقول في مطلع القصيدة :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ومن أبياتها في الرد على مزاعم المستشرقين الذين يدعون أن الإسلام انتشر بحد السيف :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهـل وتضـليل أحـلام وسفسـطة فتحـت بالسـيف بعـد الفـتح بـالقلم

ويلحق بنهج البردة قصائد أخرى مثل: الهمزية النبوية وهي معارضة أيضًا للبوصيري وقصيدة ذكرى المولد التي مطلعها :

سـلوا قلبـي غـداة سـلا وتابـا لعـل عـلى الجـمال لـه عتابًـا

ومن عبقرية شوقي أنه اتجه إلى الحكاية على لسان الحيوان وبدأ في نظم هذا الجنس الأدبي منذ أن كان طالبًا في فرنسا ليتخذ منه وسيلة فنية يبث من خلالها نوازعه الأخلاقية والوطنية والاجتماعية ويوقظ الإحساس بين مواطنيه بمآسي الاستعمار ومكائده .

وقد صاغ شوقي هذه الحكايات بأسلوب سهل جذاب وبلغ عدد تلك الحكايات ٥٦ حكاية نُشرت أول واحدة منها في جريدة «الأهرام» سنة (١٣١٠هـ = ١٨٩٢م) وكانت بعنوان «الهندي والدجاج» وفيها يرمز بالهندي لقوات الاحتلال وبالدجاج لمصر .

وأخيراً بعد معاناة شاعر ولوعة عاشق وشجون وطني عاد شوقي إلى الوطن في سنة (١٣٣٩هـ = ١٩٢٠م) واستقبله الشعب استقبالاً رائعًا واحتشد الآلاف لتحيته وكان على رأس مستقبليه الشاعر الكبير « حافظ إبراهيم » وجاءت عودته بعد أن قويت الحركة الوطنية واشتد عودها بعد ثورة ١٩١٩م وتخضبت أرض الوطن بدماء الشهداء بعد ثورة ١٩١٩ فمال شوقي إلى جانب الشعب وتغنَّى في شعره بعواطف قومه وعبّر عن آمالهم في التحرر والاستقلال والنظام النيابي والتعليم ولم يترك مناسبة وطنية إلا سجّل فيها مشاعر الوطن وما يجيش في صدور أبنائه من آمال .

ليبدأ شوقي صفحة جديدة مع الطبقة الكادحة والوسطة من الشعب وينزل إلى

سفح الأرض وهموم الناس وأتراح العامة منهم .

وانقطعت علاقة أحمد شوقي بالقصر واسترد الطائر المغرد حريته وخرج من القفص الذهبي وأصبح شاعر الشعب المصري وترجمانه الأمين فحين يرى زعماء الأحزاب وهم يتنافسون فيما بينهم والاحتلال الإنجليزي لا يزال جاثم على صدر الوطن يصيح قائلاً :

إلام الخلف بينكم إلاما ؟ ورهدي الضجة الكبرى علاما ؟

وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟

وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما

ورأى شوقي في التاريخ المصري القديم وأمجاده ما يثير أبناء الشعب ويدفعهم إلى الأمام والتحرر فنظم قصائد عن النيل والأهرام وأبي الهول . ولما اكتشفت مقبرة توت عنخ أمون وقف العالم مندهشًا أمام آثارها المبهرة ورأى شوقي في ذلك فرصة للتغني بأمجاد مصر حتى يحرّك في النفوس الأمل ويدفعها إلى الرقي والطموح فنظم قصيدة رائعة مطلعها :

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

وقصي من مصارعهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا

ولقد توقف شوقي أمام المد العربي الذي لم تحده حدود مصر فحسب بل قفزت خلف ستور الحواجز وتخوم الفواصل الجغرافية فضم الوطن العربي الكبير بجناحيه وامتد شعر شوقي بأجنحته ليعبر عن آمال العرب وقضاياهم ومعاركهم ضد المستعمر فنظم في «نكبة دمشق» وفي «نكبة بيروت» وفي ذكرى استقلال سوريا وذكرى شهدائها ومن أبدع شعره قصيدته في «نكبة دمشق» التي سجّل فيها أحداث الثورة التي اشتعلت في دمشق ضد الاحتلال الفرنسي ومنها :

بنـــي ســـوريّة اطرحـــوا الأمـــاني ... وألقـــوا عـــنكم الأحـــلام ألقـــوا
وقفـــتم بـــين مـــوت أو حيـــاة ... فـــإن رمـــتم نعـــيم الـــدهر فاشـــقوا
وللأوطـــان في دم كـــل حـــرٍّ ... يـــد ســـلفت وديـــن مســـتحقُّ
وللحريـــة الحمـــراء بـــاب ... بكـــل يـــد مضرجـــة يُـــدَقُّ

ولم تشغله قضايا وطنه عن متابعة أخبار دولة الخلافة العثمانية فقد كان لها محبًا عن شعور صادق وإيمان جازم بأهميتها في حفظ رابطة العالم الإسلامي وتقوية الأواصر بين شعوبه حتى إذا أعلن «مصطفى كمال أتاتورك» إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ وقع الخبر عليه كالصاعقة ورثاها رثاءً صادقًا في قصيدة مبكية مطلعها :

عـادت أغـاني العـرس رجـع نـواح ... ونعيـــت بـــين معـــالم الأفـــراح
كُفنـــت في ليـــل الزفـــاف بثوبـــه ... ودفنـــت عنـــد تـــبلج الإصـــباح
ضـــجت عليـــك مـــآذن ومنـــابر ... وبكـــت عليـــك ممالـــك ونـــواح
الهنـــد والهـــة ومصر حزينـــة ... تبكـــي عليـــك بمـــدمع ســـحَّاح

ويبقى السؤال :

كيف نال شوقي إمارة الشِعر عن جدارة وتفرد واستحقاق فتربع على دولته وحده ؟!

أصبح شوقي بعد عودته من المنفى شاعر الأمة المُعبر عن قضاياها لا تفوته مناسبة وطنية إلا شارك فيها بشعره وقابلته الأمة بكل تقدير وأنزلته منزلة عالية وبايعه شعراؤها بإمارة الشعر سنة (١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) في مشهد من أروع وأهم مشاهد حياة شوقي حين يحضر كل رموز اللإبداع والفِكر والسياسة والفن والشِعر ليبايعوه أميراً للشعراء بلا منازع في حفل أقيم بدار الأوبرا بمناسبة اختياره عضوًا في مجلس الشيوخ وقيامه بإعادة طبع ديوانه «الشوقيات». وقد حضر الحفل وفود من

أدباء العالم العربي وشعرائه وأعلن حافظ إبراهيم باسمهم مبايعته بإمارة الشعر قائلاً :

بلابل وادي النيل بالشرق اسجعي بشعر أمير الدولتين ورجِّعي
أعيدي على الأسماع ما غردت به براعة شوقي في ابتداء ومقطع
أمير القوافي قد أتيت مبايعًا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

ويتبارى كبار نجوم الشِعر والفِكر في العالم العربي في حفل العُمر بمبايعة شوقي أميراً للشعراء .

بعد اختياره أميرا للشعراء سنة ١٩٢٧ اختير عضوا بمجلس الشيوخ وأقيم له حفل شاركت فيه الدول العربية جميعا بمندوبين و كان من بينهم محمد كرد على عن المجمع العلمى العربى بدمشق و شبلى ملاط عن لبنا و أمين الحسينى عن فلسطين و شكيب أرسلان وفندنبرج عن بلجيكا- ثم أقيم فى زحلة بلبنان حفل تكريم له غنى فيها محمد عبد الوهاب قصيدة شوقى : « يا جارة الوادى ».

ولعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين رأي حين يصف التحول الذي قلب استراتيجية شوقي الشعرية بعد المنفى الإسباني قائلاً :

« إنه قد تحوّل تحولاً خطيرًا حقّا لا نكاد نعرف له نظيرًا عند غيره من الشعراء الذين سبقوه في أدبنا العربي إن شعره التقليدي قد تحرر من التقيد بظروف السياسة واستكشف نفسه وإذا هو شاعر قد خلق ليكون مجدّدًا). كما يرى طه حسين أن (شوقي) في كثير من قصائده الأخيرة قد أخذ يحقق النموذج الجمالي والفكري للإنسان المصري والعربي »

ولشوقي قصص غفيرة مع أمجاد مسرحه الشعري فحين بلغ قمة مجده وأحس أنه قد حقق كل أمانيه بعد أن بايعه شعراء العرب بإمارة الشعر فبدأ يتجه إلى فن

المسرحية الشعرية وكان قد بدأ في ذلك أثناء إقامته في فرنسا لكنه عدل عنه إلى فن القصيد .

وأخذ ينشر على الناس مسرحياته الشعرية الرائعة استمد اثنتين منها من التاريخ المصري القديم وهما: «مصرع كليوباترا» و«قمبيز» والأولى منهما هي أولى مسرحياته ظهورًا وواحدة من التاريخ الإسلامي هي «مجنون ليلى» ومثلها من التاريخ العربي القديم هي «عنترة» وأخرى من التاريخ المصري العثماني وهي «علي بك الكبير» وله مسرحيتان هزليتان هما: «الست هدي» و«البخيلة».

وحين يأتِ ذِكر أحمد شوقي لا بُد أن تجد حافظ إبراهيم معه .. وعلاقة الصداقة الوطيدة بين شوقي وحافظ والتي لم تتغير قيد أنملة بين الصديقين وهذا درس عملي في فنون الصداقة المفقودة أو المجروحة في هذا العصر .. فماذا عن علاقة صداقة شوقي وحافظ ؟!

يطيب للشاعرين المصريين حافظ إبراهيم وأحمد شوقي أن يتمازحا أحياناً. وكان شوقي جارحا في رده على الدعابة. ففي إحدى ليالي السمر أنشد حافظ إبراهيم هذا البيت ليستحث شوقي على الخروج عن رزانته المعهودة :

يقولون إن الشوق نار ولوعة فما بال شوقي أصبح اليوم باردا

فرد عليه أحمد شوقي بأبيات قارصة قال في نهايتها :

أودعت إنسانا وكلبا وديعة فضيعها الإنسان والكلب حافظ

وعن أطرف مناطق الطرفة والدعابة بين الصديقين الحميمين وبين كل منهما مع غيره .. ففي ذات مرة كان حافظ إبراهيم جالساً في حديقة داره بحلوان ودخل عليه الأديب الساخر عبد العزيز البشري وبادره قائلاً : شفتك من بعيد فتصورتك واحدة سِت .

فقال حافظ إبراهيم : والله يظهر انه نظرنا ضعف أنا كمان شفتك وانته جاي افتكرتك رجُل!

وماذا عن الخصمين اللدودين شوقي والعقاد ؟!

فالأديب العملاق عباس محمود العقاد دخل في معارك أدبية مع أدباء عصره ومن بينهم طه حسين والرافعي فكانت تربطه صداقة حميمية بالأديب إبراهيم عبد القادر المازني وكان الصديقان يختلفان في طول القامة مما تسبب لهما في العديد من المفارقات حتى أن بعض الأشخاص ظنوا أن العقاد يسير في صحبة ابنه ! .

واكتشف الناس أن العقاد والمازني كان يعدان لقنبلة مدوية حين نزل كتابهما « الديوان » الذي ينسف تاريخ وشخصية أحمد شوقي أميرالشعراء فانتفض شوقي واشتعلت معركة لم تبقِ ولم تزر بين أساطين الإبداع وجهابزة الفِكر .

وللعقاد شهادة حين سُئل العملاق ذات مرّة : إن من يقرأ رأيك في شوقي الشاعر منشوراً في كتاب «الديوان» ثم مُدرجاً في العدد الخاص من مجلة «الكتاب» عن الشاعرين حافظ وشوقي ـ وهي المجلة التي كان يُحررها عادل الغضبان ـ يستقر في رأيه أنك لم تجد في شعر شوقي فضيلة واحدة. فهل أنت مازلت على رأيك فيه وهو أنه عارٍ عن الشاعرية لا يعرف التجديد ولا يُحسن اللغة ولا يتبصّر رسالة الشعر؟ لقد ندم المازني على ما كتبه في «الديوان» وكان ذلك في فصول أذاعها ثم نشرتها مجلة «الإذاعة المصرية» قبيل وفاته فهل اعتراك شيء من مثل هذا الندم ؟

فقال العقاد بصوته الجهوري : « لقد كرهت شوقي لأنه رجل بلا خلق ! كنت أتصدّى له في العلن ولكنه كان يُحاربني بما يوزعه على المجلات الصفراء من مال وبما يستأجره من الأقلام والكتاب لمهاجمتي فهو رجل دسّاس تعلّم التآمر والغدر من وظائفه بباب إسماعيل وأمثال هؤلاء لا أرحمهم. وقد أصبح شوقي تاريخاً

ولكنه بالنسبة لي لم ينطو بعد. ورأيي فيه هو الذي أملى عليَّ رأيي في شعره. فمن كانت هذه أخلاقه فلا بد أن يكون رأيي في شعره سيئاً » !

لم يكن العقاد يحب محمد عبد الوهاب وكان في ندوته يوم الجمعة يسخر منه كلما سنحت الفرصة ويقول توثيقا لرأيه : بأن عبد الوهاب مغن ضعيف لا يفهم ما يغني : اسمعوا أغنيته «مين زيك عندي يا خضرا في الرقة يا غصن البان ما تجودي علي بنظرة وأنا رايح للميدان...» بذمتكم هل يليق هذا اللحن المترقق بموضوع حماسي : ده رايح الميدان وللا رايح ينام ؟!

ولشوقي علاقة وطيدة بعباس العقاد رغم الإنتقاد والمعارك أحياناً .. وكيف كان يحرص علي المواعيد والالتزام ولا يسمح لأحد بحضور صالونه الأدبي إن جاء متأخرا مهما كانت درجة صداقته به .

وكان العقاد يعرف قيمة الوقت ويحترم الذين يحفظون المواعيد. فإن تواعد مع أحد وأخلف الميعاد ولو بدقيقة واحدة رفض العقاد مقابلته أيا كان. وحدث مرة أن دعي أعضاء المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون إلى الاجتماع فانتظم الأعضاء جميعاً في الموعد المحدد ومنهم طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد وإبراهيم بيومي مدكور وغيرهم. وكانت هذه المجالس تنعقد برياسة الوزير وهي رياسة شكلية تقليدية لا تؤثر في عمل المجلس. ودقّت الساعة مُعلنة السادسة والوزير لم يحضر. فقال العقاد لطه حسين : تولّ أنت الجلسة ! فأجفل طه حسين من هذا الاقتراح وقال : لننتظره ربع ساعة . فقال العقاد : « إذن أرأس أنا اللجنة. فُتِحت الجلسة » ومضى يُصرِّف أمور المجلس دون انتظار أحد ولما جاء الوزير خاطبه العقاد قائلاً : لدينا أعمال عاجلة لا تحتمل الانتظار فانصرفنا إلى إنجازها . ثم أخلى مكانه للوزير ! .

وعلاقة طيبة ضاربة جذورها ضربت لا ريب بين الزعيم مصطفى النحاس وشوقي :

يروى أن زعيم حزب الوفد - قبل الثورة - مصطفى النحاس الذي اشتهر بخفة ظله وتغلبه علي أصعب المواقف بالضحك والسخرية أنه في أحد الأيام كان النحاس جالسا مع أحمد شوقي وفؤاد سراج الدين وكان شوقي ينتقد بعض الأشخاص الذين يتنقلون من حزب إلى آخر وأيده سراج الدين في ذلك عاتباً عليهم ذلك وأنهم يغيرون مبادئهم مع التيار الغالب .. فقال النحاس : أنا أرى أنهم من أصحاب المبادئ النظيفة. وانزعج سراج الدين وتساءل : كيف ؟ .

فأجاب النحاس : لأنهم دائما يغيرون مبادئهم حتى لا تتسخ .

* ومن إنسانيات شوقي وغرائبه وطرائفه ومكنون نفسه ومخزون ذاته وكيف كان شوقي يخشى الموت ويفزع منه شديد الفزع كان يخاف ركوب الطائرة ويرفض أن يضع ربطة العنق لأنها تذكره بالمشنقة وكان ينتظر طويلا قبل أن يقرر عبور الشارع لأنه كان يشعر أن سيارة ستصدمه فى يوم من الأيام وتحققت نبوءته وصدمته سيارة فى لبنان وهو جالس فى سيارته ونجا من الموت بأعجوبة . كما كان يخاف المرض ولا يرى صيفا أو شتاءا إلا مرتديا ملابسه الكاملة وكان يرتدى الملابس الصوفية فى الشتاء والصيف على السواء .

* وعندما مات الإمام الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ م وقف على القبر سبعة من الشعراء يلقون قصائدهم أرسل شوقي ثلاثة أبيات لتلقى على قبر الإمام يقول فيها :

مفسر أي الله بالأمس بيننا ... قم اليوم فسر للورى آية الموت

رحمت مصير العالمين كما ترى ... وكل هناء أو عزاء إلى فوت

هــو الدهــر مــيلاد فشــغل فماتــم فذكر كما اتقى الصدى ذاهب الصوت

* وكـان أول الشـعراء الـذين القـوا قصـائدهم حفنـي ناصـف وآخـرهم حـافظ إبراهيم ثم أنشدت أبيات شوقي بعد ذلك .

* وفي مفاجأة غريبة تنبأ أحـد الأدبـاء : بـان هـؤلاء الشـعراء سـيموتون بحسـب ترتيب إلقائهم لقصائدهم وبالفعـل كـان حفنـي ناصـف أول مـن فقـد مـن هـؤلاء الشعراء ثم تتابع رحيلهم بحسب ترتيب إلقـاء قصـائدهم عـلى قـبر الأمـام وكـان حافظ آخر من مات أيقـن شـوقي أن أجلـه قـد قـرب فـاغتنم وحـزن .. وسـافر إلى الإسكندرية كأنما يهرب من المصير المحتوم .. ولكن هيهات .. فقـد مـات شـوقي فى نفس العام الذي مات فيه حافظ وكان قد نظم قبل وفاته وصيه جاء فيها :

ولا تلقـوا الصخـور على قـبرى .

ألـم يكف هما فى الحياة حملته .

فاحمله بعد الموت صخرا على صخر .

وظل شوقي محل تقـدير النـاس وموضـع إعجـابهم ولسـان حـالهم حتـى إن المـوت فاجأه بعد فراغه من نظم قصيدة طويلة يحيي بها مشروع القرش الذي نهض بـه شـباب مصر وفاضت روحه الكريمة في (١٣ من جمادى الآخرة = ١٤ من أكتوبر ١٩٣٢م

حين تـوفى شـوقى .. خرجـت الأمـة كلهـا تـودع شـاعرها .. و بكـى الشـعراء و الأدباء فى كل أنحاء الأمة العربية .. قال بشارة الخوري :

إلهـة الشـعر قامـت عـن ميـــامنه و ربـة النثـر قامـت عـن ميـاسره

و الحـور قصـت شـذورامن غـدائره و أرســـلتها بـديلا مـن سـتائره

و قال خليل مطران :

هبـة بهـا ضـن الزمـان فلـم تـتح إلا لأفـــــذاذ مـــن النبغـــاء

* ولا تلقوا الصخور علي قبري ألم يكف همّا في الحياة حملته فأحمله بعد الموت صخرا علي صخر؟ تلك كما يروي من أواخر كلمات أحمد شوقي بعد أن شعر ان الموت الذي اختطف منافسيه وأحبته صار يحوم حوله كذئب جريح فذهب وهو الذي كان يخشي الموت والسفر والمرض الي ملاقاته في الاسكندرية متسلحا بقصيدة أخيرة أشبه ما تكون بوصية أو بكلمات علي شاهدة ضريح.

لم يكن أحمد شوقي أمير شعراء عصره الملكي يفكر أغلب الظن عندما كتب كلماته تلك إلاّ بثقل التراب والحجارة التي ستلقي علي جثته (مع أن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها) غبَّ مواراته باطن الارض. أقول إنه لم يكن يفكر ربما إلاّ بثقل اللحد الذي يختم به عادة الجسد العائد الي منبته 'الاول لكن شوقي كان يتنبأ من حيث لا يدري بصخور أخري أشد قسوة سترمي علي قبره بل علي بيته الرمزي : الشعر .

ومن إنسانيات شوقي الرقيقة ونظرته الرؤف مع شعراء المواقف نذكر منها موقفه مع محمود أبو الوفا شاعر :

عندما يأتى المساء ونجوم الليل تنثر

اسألوا الليل عن نجمى متى نجمى يظهر

أغنية من أرق أغنيات الموسيقار محمد عبد الوهاب وضع كلماتها الشاعر محمود أبو الوفا .

وقد كان الشاعر محمود أبو الوفا رجلا بائسا .. فقد والده وهو طفل صغير ثم ما لبث أن فقد إحدى ساقيه فى جراحة ساقيه فى جراحة فاشلة ونزح الشاعر المسكين إلى القاهرة تلاطمه الأيام وتعيبه حرفة الأدب . وأمتلك أبو الوفا فى وقت من الأوقات نصف قهوة فى شارع عبد الخالق ثروت وكان يملك النصف الثاني

قهوجي بلدي .وحول أبو الوفا القهوة إلى صالون من صالونات الأدبش .. وحين أعلنت لجنة مهرجان تنصيب شوقي أميرا للشعراء عن مسابقة بين الشعراء لتختار قصيدة يلقيها صاحبها فى الحفل الذي يقام بهذه المناسبة – فى دار الأوبرا كتب أبو الوفا قصيدته التي مدح فيها شوقي وهو يقول فيها:

وخالد الشعر سوف يبقى مرايا تجتلى فى صفائها الأشياء
يا أمير البيان إن بياني فيك اعشت عبرته الأضواء

وقد اختارت اللجنة التي كان من أعضائها شاعر النيل حافظ إبراهيم وشاعر القطرين خليل مطران هذه القصيدة ليلقيها الشاعر فى الحفل .

وذهب محمود أبو الوفا إلى دار الأوبرا مرتديا جلبابه ومعطفه وعكازه تحت إبطه وعصاه فى يده ورآه شوقي على هذه الصورة فرفض أن يقف هذا الرجل على خشبة مسرح الأوبرا فى يوم تتويجه أميرا للشعراء .

وتدخل الموسيقار محمد عبد الوهاب لدى شوقي فسمح للشاعر أبو الوفا بإلقاء قصيدته وقد انتزع محمود أبو الوفا الإعجاب وبزغ نجمه وعلا قدره منذ هذا اليوم حتى أن شوقي نفسه قال فيه قصيدته الرائعة التى يقول فيها :

البلبل الغرد هز الربى وشجى الغصون وحرك الأوراقا
خلف البهاء على القريض وكأسه تسقي بعذب نسيبه العشاقا
فى القيد ممتنع الخطى وخياله يروى البلاد وينشر الآفاق
سباق غايات البيان جرى بلا ساق فكيف إذا استرد الساقا

وقد كان أن عهد إلى الشاعر محمود أبو الوفا بالإشراف على طبع الجزء الثالث من الشوقيات الذي صدر بعد وفاة أحمد شوقي .

وقد أرسلت الدولة محمود أبو الوفا إلى باريس لتركب له ساق صناعية وعاد من أوروبا يرتدى الساق الصناعية والبدلة الإفرنجية ولكنه سرعان ما خلع البدلة . وعاد إلى ارتداء الجلباب والمعطف بل خلع الساق أيضا وعاد إلى استخدام العكاز والعصا .

ولشوقي وقفة غرام بـ أسطورة الحب والفِكر مي زيادة وعلاقة شوقي بها فقد افتتن بـ « مي » فكتب بها قصيدة يصف فيها افتتانه بـ مي كأديبة وكامرأة :

أسائل خاطري عما سباني ... أحسن الخلق أم حسن البيان ؟
رأيت تنافس الحسنين فيها ... كأنهما لميعة عاشقان
إذا نطقت صبا عقلي إليها ... وإن بسمت إليَّ صبا جناني
أم أن شبابها راث لشيبي ... وما أوهى زماني من كياني

إنها محطات نارية من معارك الكبار في صالون مي زيادة .

ولشوقي أيضاً علاقة صداقة وطيدة بتوأمه موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب ..

إذ يعتبر الموسيقار الراحل محمد عبد الوهَّاب هو الرائد الأول للسينما الغنائية في مصر والوطن العربي كمنتج وموسيقار ونجم غنائي في سبعة أفلام .

ومن تجديد شوقي في قصائده أن كتب القصيدة القصيرة التي تخرج عن عادة شعر العرب لذا سميت بالشوقيات لخصوصيتها وطرافتها ويقول في أحدها :

سقط الحمار من السفينة في الدجى ... فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتى إذا طلع النهار أتت به ... نحو السفينة موجة تتقدم
قالت خذوه كما أتاني سالما ... لم ابتلعه لأنه لا يهضم

ومن شعره أيضا خدعوها بقولهم حسناء :

خـــدعوها بقـــولهم حســـناء ... والغـــواني يغـــرهن الثنـــاء
أتراهـا تناسـت اسـمي لمـا كثـرت ... في غرامهـــا الأســـماء
إن رأتنـــي تميـــل عنـــي كـــأن لم ... تكـــن بينـــي وبينهـــا أشـــياء
نظـــرة فابتســـامة فســـلام فكـــلام ... فموعـــد فلقـــاء
يـــوم كنـــا ولا تســـل كيـــف كنـــا ... نتهـــادى مـــن الهـــوا مـــا نشـــاء
وعلينـــا مـــن العفـــاف رقيـــب ... تعبـــت في مراســـه الأهـــواء
جـــاذبتني ثـــوب الـــعصي وقالـــت ... أنـــتم النـــاس أيهـــا الشـــعراء
فـــاتقوا الله في قلـــوب العـــذارى ... فالعـــذارى قلـــوبهن هـــواء

ومن شعره : قف حى شبان الحمى: «نظمها في الطلاب المصريين الذين يطلبون العلم في أوروبا » :

قـــف حـــى شـــبان الحمـــى ... قبـــل الرحيـــل بقافيـــه
عـــودتهم أمثالهـــا ... في الصالحـــات الباقيـــه
مـــن كـــل ذات إشـــارة ... ليســـت عليـــهم بخافيـــه
قـــل ياشـــباب نصيحـــة ... ممـــا يـــزود غاليـــه
هـــل راعكـــم أن ... رس في الكنـــانة خاويـــه
هجـــرت فكـــل خليـــة ... مـــن كـــل شهـــد خاليـــه
وتعطلـــت هالاتهـــا ... منكـــم وكانـــت حاليـــه
غـــدت السياســـة وهـــى آ ... مـــرة عليـــها ناهيـــه
فهجرتمـــو الـــوطن العـــز ... يـــز إلى الـــبلاد القاصيـــه

أيضا من شعره « أحرام على بلابله الدوح » :

اختلاف النهار والليل ينسى ... اذكر لى الصبا وايام أنسى
وصفا لى ملاوة من شباب ... صورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت ... سنة حلوة ولذة خلس
وسلا مصر هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليالى عليه ... رق والعهد بالليالى تقسى
أحرام على بلابله الدوح ... حلال للطير من كل جنس ؟
كل دار أحق بالأهل الا ... في خبيث من المذاهب رجس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى اليه في الخلد نفسى
شهد الله لم يغب عن جفونى ... شخصه ساعة ولم يخل حسى
وعظ البحتيرى ايوان كسرى ... وشفتنى القصور من عبد شمس
لم يرعنى سوى ثرى قرطبى ... لمست فيه عبرة الدهر خمسى
مرمر قامت الاسود عليه ... كلة الظفر لينات المجس
اخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس
ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم ... عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت ... تحت آبائهم هى العرش امس
امرة الناس همة لاتأتى ... لجبان ولا تسنى لحبس

ولشوقي هنَّات وسقطات شعرية ووطنية في بداية حياته أيضاً ومنها :

موقفه من مجزرة دانشوى سنة ١٩٠٦ وكرومر الإستعمارى يشنق المصريين ويمثل بجثثهم وتترك على المشانق عبرة لمن تسول له نفسه الإعتراض على سعادة المحتل المستعمر فالأرض والعرض والكرامة والكبار والصغاروالشعراء والأدباء

والوزراء وحاشية السلطان في خدمة الإحتلال ومأأشبه الليلة بالبارحة ومانراه من مفكرينا الأشاوس ومثقفينا القادة أحفاد الرواد الأوائل لم يكن شوقى إلا الشاعر الأرستقراطى الذى يدور مع زعامات الأسرة العلوية وجودا وعدما مدحا وذما للمغضوب عليهم أو المقربين من سدة العرش . لم تحظ هذه المجزرة إلا بقصيدة هزيلة لاقيمة لها ولا فائدة منها .

ورغم ذلك فقد شيَّد أحمد شوقي قيماً نبيلة وأسساً عظيمة في شتى المجالات منها ما قاله في المُعلِّم :

قم للمعلم وفِّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي ... يبني وينشئُ أنفسا وعقولا

وعن أحمد شوقي الزوج والأب نرى صورة قريبة لحياته حيث تزوج شوقى من السيدة خديجة شاهين ابنة حسين بك شاهين (من أصل تركى) وكانت رقيقة طيبة القلب إلى حد بعيد حتى أن شوقى كان يشبهها بقطة من أنقرة لشدة رقتها و طيبة قلبها .. ورزق بصبيين وفتاة هم (علي وحسين وامينة) .

وكما يقول نجله حسين أن والده كان دائماً يتوخى رضاه ويساير أهواءه هو وأخيه «علي» حتى أنه «كاد يبطل قرار التحاقه بالمدرسة حين علم بغضبي من هذا القرار وخوفي من الساعات الطويلة التي سأقضيها بين جدران أربعة ..» وأن ذلك كاد يتحقق بالفعل لولا تدخل مربيته التركية التي كانت تحكم البيت بيد من حديد .. والطريف في هذه الواقعة أنه بعد أن التحق الابن بالمدرسة لم يجد مناصاً من التمارض وكان شوقي يساعده على اختلاق ذلك نكاية في المربية الحديدية التي كانت لا تمر عليها مثل هذه الحيل .

وعن الشاعر الذي كان مناط احترام وتقدير شوقي نجد أنه الشاعر العباسي

أبي نواس وكان يرى أنه لم ينل حظه من الدراسة والتقييم وأنه ظلم حين صوروه على أنه «شاعر ماجن». وقد تبلور هذا الإعجاب في إطلاق شوقي اسم كرمة ابن هانئ على حديقة منزلهم الغناء الفسيحة سواء منزلهم القديم في ضاحية المطرية آنذاك أو بعد ذلك في منزلهم على نيل القاهرة بالجيزة .

وقد بدا ذلك جلياً في شهادة نجليه حسين الذي كتب كتابه : « أبي شوقي » وبكل شجاعة يهتك الابن مناطق شديدة الخصوصية في شخصية شوقي فيراه سريع التقلب كالمحيط ويذكر أن أهم عيوب أبيه أنانيته الشديدة متسائلا هنا : هل هي من لوازم الشعراء ؟.

ويذكر في هذا الخصوص أنهم لم يكونوا يستطيعون الغداء في ساعة معينة بل كان لزاماً عليهم أن ينتظروا إلى أن تحين شهية الأب وكثيراً ما كان يطول هذا الانتظار لأنه كان يصحو من نومه متأخراً وسبب هذا التأخير - كما يروي الابن - أن شوقي كان يراجع بعدما يعود من سهرته ما نظم من شعر طوال نهاره .

ويدلل الابن على أنانية أبيه المفرطة بواقعة أخرى أكثر طرافة فيروي أن والده كان يغضب منه هو وأخيه «علي» حين يختارا أصنافاً مألوفة لهما في مطاعم اوروبا وكان الأب يدفعهما إلى أن يختارا أصنافاً مجهولة كي يختار هو منها في المرة المقبلة إذا راقتهما . ويعلق الابن بأن اقتراحات الأب هذه كانت تفسد الأكلة لأن تلك الأصناف المجهولة كانت «مقالب» في معظم المرات وكان حظه منها مرة ضفدعاً سد نفسه عن تناول أي طعام آخر .

ومن مقالب شوقي تخليه عن السفر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج مع ولي نعمته الخديوي عباس حلمي وكان شوقي هو شاعر بلاطه .. ويروي حسين شوقي أن أباه لجأ إلى حيلة ماكرة للهرب من هذا المأزق حيث أقنع الخديوي بأنه ذاهب معه

إلى الحج لكن لما بلغ الركب مدينة بنها فر منه واختبأ في منزل أحد أصدقائه .. ولما عاتبه الخديوي بعد أن رجع من الحج اعتذر له شوقي قائلاً : كل شيء إلا ركوب الجمال يا أفندينا .. وعزز اعتذاره بأن نظم له قصيدته الشهيرة تهنئة بالحج وترحيباً بالعودة التي استهلها بقوله :

إلى عرفات الله يابن محمد عليك سلام الله في عرفات

وعلى الرغم من احتفاء حسين شوقي بصورة أبيه واعتزازه بها إلا أنه يرى أيضاً أنه كان بوهيمي النزعة إلى حد بعيد ويدلل على ذلك بعدد من الوقائع الطريفة منها هذه الواقعة التي حدثت أثناء منفى شوقي في مدينة برشلونة بأسبانيا في الفترة من عام ١٩١٥ إلى ١٩٢٠ يقول: ركبنا الحافلة ذات يوم هو وأنا فصعد رجل عملاق بادي الترف والثراء يعلق سلسلة ذهبية بصدره وفي فمه سيجار ضخم ثم ما لبث أن استسلم للنوم في ركن من العربة وراح يغط غطيطاً يرهق الأعصاب. وصعد نشال في مقتبل العمر جميل الصورة وهمّ بأن يخطف السلسلة لكنه أدرك أن أبي يلمحه فأشار إليه إشارة برأسه مؤداها : هل آخذها ؟ فأجابه أبي برأسه «خذها» فنشلها الشاب ونزل .. بعدما حيّا أبي برفع قبعته !

ولم يكد ينزل حتى التفتّ إلى أبي وقلت : هل يصح أن تترك النشال يأخذ سلسلة الرجل وهو نائم ؟ فأجاب : شيء عجيب يا بني ! لو كنت مقسماً الحظوظ فلمن كنت تعطي السلسلة الذهبية ؟ أكنت تعطيها عملاقاً دميماً أم شاباً جميلاً ؟

فقلت : كنت أعطيها الشاب الجميل فأجاب ببساطة: ها هو ذا أخذها !

وفي سنوات المنفى الخمس التي قضاها شوقي هو وأسرته في اسبانيا بعد عزل الخديوي عباس حلمي على يد الاحتلال الإنجليزي وفرض السلطة العسكرية على مصر إبان الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من قسوة المنفى وشظف العيش الذي

لم يعتده شوقي إلا أنه استطاع أن يتكيف مع هذه الأجواء وأن يجعل الحياة لذيذة مسلية ويخفف من وطأة المحنة على كاهل أسرته الكبيرة التي كانت تضم عشرة أفراد. وقد تولى شوقي تعليم أولاده الثلاثة فكان يعطيهم دروساً في اللغة العربية طيلة مدة المنفى كما وفر لهم مدرسين للغة الألمانية والفرنسية علاوة على ذلك تعلم شوقي الأسبانية لكن نطقه فيها لم يكن سليماً .

شتان ما بين مشهد الرحيل من مصر الذي لم يكن في وداع شوقي وأسرته إلا عدد قليل من الأقارب والأصدقاء تحسباً من بطش الاحتلال ومشهد العودة من المنفى الذي تجمع فيه آلاف الطلبة لتحيته في فناء محطة السكة الحديد ثم حملوه على الأعناق حتى السيارة وهم يهتفون بحياته وحياة الوطن.. يقول حسين : كانت الدموع تترقرق في عينيه طوال الطريق من المحطة إلى المطرية .

ولشوقي صداقات لعددٍ غفير من الساسة والأدباء والشعراء العرب والمصريين ويستعيد ملامح من ذكرياته في باريس أثناء دراسته في جامعة مونبلييه وتعرفه على الشاعر الفرنسي الشهير فرلين على أحد مقاهي ميدان السوربون. ويحكي شوقي أن فرلين كان لا يكف عن الشراب لحظة وكانت الخمر تتساقط على ذقنه فلا يعنى بمسحها إذ كان شاعراً بوهيمياً وكان طلبة السوربون الذين يمرون بين يديه وهو على تلك الحالة يرفعون له قبعاتهم إجلالاً له بينما هو لا يشعر بهم فهو سابح في عالم الشعر والخيال .

ونتوقف أيضاً عند الكثير عن حفلات شوقي الذي كان يقيمها في الكرمة وبخاصة في المناسبات والأعياد ومن أشهرها حفل تكريم شاعر الهند الكبير طاغور والذي حضره الكثير من الأدباء والكبراء على رأسهم الزعيم سعد زغلول الذي أخر اجتماع مجلس النواب ساعة آنذاك كي يتسنى للأعضاء المدعوين إلى

الحفل تلبية الدعوة. وفي هذا الحفل أثنى طاغور على شعر شوقي لأن قراءه هم العالم العربي كله بينما قراءه لا يتجاوز عددهم عشرة ملايين نظراً لأن كل ولاية هندية تتكلم لغة تختلف عن لغة الأخرى .. وقد غنى محمد عبد الوهاب في هذا الحفل مقطوعة من رواية «مصرع كليوباترا» لأحمد شوقي احتفاء بطاغور .

أن الفضل الأكبر في نجاح أحمد شوقي في حياته يرجع إلى أمه بسبب خلقها النبيل وطيبتها فهي لم توجه إليه لوماً في حياته مرة مع أنه كان خليقاً ـ على حد قوله ـ باللوم أحياناً وفقاً لشهادة حسين شوقي نجل أمير الشعراء .

■ ■ ■

obeikan.com

الوداع الأخير

في يوم ١٣ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٣٢ خرج شوقي يتروّض بالسيارة مع سكرتيره في ضاحية مصر الجديدة وكأنه أحس بدنو أجله فأدار حوارا مع سائقه عن التوبة والغفران حسبما نص عليهما القرآن الكريم ثم زار في مساء اليوم نفسه محمد توفيق دياب بك رئيس تحرير صحيفة « الجهاد » وكان أحد أصدقائه المقربين وقد نظم له شوقي بيتاً من الشعر جعله شعار الجريدة يقول :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

وفي الثانية صباحاً رحل شوقي .. وبعد عشر سنوات ـ يروي حسين شوقي ـ أنه سأل الطبيب النمساوي عن سبب موت أبيه برغم أنه لم يكن متقدماً في السن إذ توفي في الثانية والستين فقال له : نعم لم يكن مسناً لكن أعصابه مع الأسف كانت بالية كانت أعصاب شيخ في الثمانين .

ليرحل عن دنيانا أحمد شوقي أمير الشعراء أول من ابتكر الشعر المسرحي ورائده الأول ومجدد الشعر العربي مع حافظ و البارودي .

ويترك لنا أشعاره ليست قصائد مبنية وجمالية فحسب .. بل تحولت إلى حِكَم ومواعظ وأمثال وأقوال مأثورة منها :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرّهنّ الثناء

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنياغلابا

...

علمتَ إن وراء الضعف مقدرة و أن للحق لا للقوة الغلبا

...

و إنـما الأمـم الأخـلاق مـا بقيـت فـإن هـم ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا

...

و طنـي لـو شـغلت بالخلـد عنـه نـازعتني إليـه في الخلـد نـفسي

...

و للحريـة الحمـراء بـاب بكـل يـد مضرجـة يـدقّ

...

رمضـان ولّى هاتهـا يـا سـاقي مشـتاقة تسـعى إلى مشـتاق

...

قـم للمعلـم وفّـه التبجـيلا كـاد المعلـم أن يكـون رسـولا

...

و الشعر ما لم يكن ذكرى و عاطفة أو حكمـة فهـو تقطيـعٌ و أوزان

...

دقـات قلـب المـرء قائلـةٌ لـه إن الحيـاة دقـائق و ثـوان

■ ■ ■

openkan.com